مجلة تراثية فصلية محكمة

المورد

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق
المجلد الخامس والعشرون ـ العدد الثاني ـ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الديري محمد

الشعر وثورة العشرين

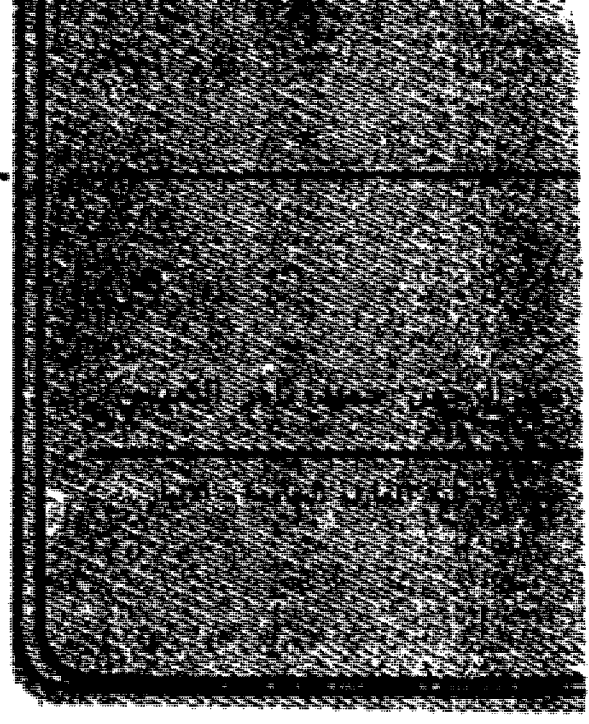

مما لا شك فيه ان ثورة العشرين تعد نقطة تحول في تاريخ العراق الحديث . واستطاعت ان تقلب الموازين فيما بعد وتسهم بشكل فاعل في ايقاظ الشعور الوطني ومن ثم تاسيس الدولة العراقية . وهو الهدف الذي كان يسعى اليه الثوار في اقامة حكومة وطنية فضلا عن اثارة الرغبة في نفوس الشعب لكي تتوق الى الحرية والاستقلال .

لذلك ستظل هذه الثورة منقوشة في ذاكرة الاجيال . وقد حظيت بكثير من الاهتمام من قبل المخلصين والمفكرين لابراز الدور الوطني للشعب العراقي الفيور وتحصين تاريخ هذه الثورة العظيمة من اية مفاهيم تحاول التقليل من اهميتها التاريخية .

والثورة تقدمتها ظروف وطنية مهدت لاندلاعها وكانت الفترة السابقة للثورة تعد ضمن الفعل الثوري « لان الحركات الثورية لا تحدد من خلال فوهة البندقية وكان الرصاص واراقة الدماء هي الامور الوحيدة التي تحدد بداية الثورة فالثورة ابعد واعمق من ذلك . فهناك ثورات لا تراق فيها قطرة دم ولكن التغيير فيها كبير جداً »[1]

واذا كانت الثورة قد انتهت الى « غير ما كان يطمع العراقيون ويبتغون فليس بمستغرب ان يخسروا معركتهم الرهيبة هذه ضد دولة كبيرة تملك قوة وباساً ولكن يكفي العراقيين فخراً انهم خاضوا غمار القتال واقتحموا استار القتام ضد هذه الدولة القوية وهم على علم بقوتها وبطشها . على ان هذه الثورة كانت ثورة كرامة وشرف وليست فقط نزالا متكافئا بحال من الاحوال »[2] .

ولعل تتويج الملك فيصل في ٢٣ / ٨ / ١٩٢١ بتنصيبه ملكا على العراق ياتي ارضاء لمطالب الثوار . لذلك نحن مخيرون القول ان التتويج من نتائج هذه الثورة حيث « لم تجد بريطانيا بدا من تنفيذ ذلك »[3] واذا لم يخرج الانكليز « نهائيا من البلاد او القضاء على نفوذهم قضاء مبرما الا انها نجحت الى حد ما في تبديل الحكم الاستعماري المباشر الى حكم وطني »[4] .

واستمرت روح الثورة فيما بعد في تواصل المشاعر الوطنية التي ظلت متدفقة حتى عندما توقفت المقاومة المسلحة فاستمر المناضلون في مواجهة الاحتلال البريطاني بطرق اضعف ايمانا ولعل من ابرزها سياسة الادب والثقافة ومنها الخطب الحماسية والاحتجاجات الكلامية والجمعيات والتظاهرات والصحافة وغير ذلك فضلا عن الصوت المميز وهو صوت الشعر الوطني العراقي . فكان مؤازرا وهاديا ومؤججا لمقاومة الانكليز . وكان للشعراء صولات وجولات اسهمت في زيادة حماس الجماهير في الوقت الذي « كان الوعي الوطني في العراق يسير سيرا وئيدا نحو نهاية غير واضحة في نفوس الجماهير »[5] وسواء كان ذلك قبيل او اثناء او بعد الثورة حيث كان له الدور الواضح في تاجيج الرغبة للانتقام من الانكليز وتصعيد الشعور الشعبي والوطني المعادي لهم . الامر الذي ساهم في انتشار هذه الثورة كما تنتشر النار في الهشيم « الى كافة انحاء العراق المختلفة بعد ان بدات من الرميثة ـ بين الديوانية والسماوة »[6] فكان للشعر اثره الواضح .

واذا كان من متطلبات البحث العلمي ضرورة استقصاء الشعر في هذه المناسبة غير العادية . فليس من المفيد لنا ان ننكر صعوبة ذلك ومن اجل ان لا نبتعد عن الحقيقة فنمد الى اختيارات تشكل نموذجا لهذا الشعر وهي لا تمثل مجمل الشعر الذي قيل في هذه الثورة التي انفجرت تحديدا يوم ٣٠ / ٦ / ١٩٢٠ عندما تعرض الانكليز للشيخ شيفلان ابو الجون و « قد خلقت جواً من التفاؤل والاستماتة في سبيل تحقيق هدفها في تحرير العراق وقيامه بدور فعال في العمل على تحقيق الاماني القومية »[7] وكان فيمن ساهم عدد من الشعراء واكبوا الثورة من خلال قصائدهم [8]التي نددوا بها بالانكليز والتحريض على مقاومتهم لاسباب مصيرية ووطنية ودينية وكانت امتدادا لما كان قبل الثورة من خلال مقاومة الانتداب والدعوة الى اقامة حكومة عراقية .

ونجد في مقدمة الذين واكبوا الثورة الشاعر الكبير محمد مهدي البصير رحمه الله وكانت قصائده تلقى على مسامع

www.attaweel.com

المتظاهرين فتزيدهم حماسا حيث الشعور الوطني الصادق .
ومما تجدر الاشارة اليه ان الشاعر البصير كان صوته مجلجلا قبل اندلاع الثورة ففي يوم ٢٥ / ٥ / ١٩٢٠ كانت له مقطوعة عندما اطلق الانكليز الرصاص على المتظاهرين :[٩]

غضبنا فقمنا ثائرين لغاية تهون المنايا دونها والمشانق
وردت الاجواء قصف زئيرنا فردت عليه بالدوي البنادق
فهل تنطق الزوراء وهي اسيرة وتسكت عما تبتغيه المناطق
اتمنع ابناء العمومة نصرها وها هي كادت ان تضيق المخانق
امالهم من حكمة الراي قائد وما لهم من قوة العزم سائق

وكذلك العكست هذه المعاني بوضوح في قصيدته (ياعلم) التي ثار البصير فيها ثورة عارمة ومنها هذه الابيات :

خطب تهز الشعب هاتفة به ليهب هبة ناهض سباق
ويثور شبوب العزيمة معلما والنصر فوق لوائه الخفاق
متطلعا للمجد مقتديا له ازكى النفوس والدس الاعلاق
مستبسلا والهام تحصرها الظبا حصد الخريف ذوابل الاوراق
يبغي الحياة بثورة في ظلها يلقى الحمام بفرحة المشتاق
متكاتفا رغم المكايد واثقا بعزيز نصر الواحد الخلاق

وجدير بالذكر ان هذه القصيدة كانت من بين المستندات التي ابرزها القاضي البريطاني وحكم عليه بالحبس الشديد لمدة سنتين وبدفع غرامة قدرها ثلاثة الاف روبية اي خمسة وعشرون ومائتا دينار . الا ان المندوب السامي الذي احيل اليه هذا الحكم للمصادقة عليه استبدل به الحبس الشديد لمدة سنة واحدة فقط .

وحينما ثار العراقيون على الانكليز وتلاحم السيفان نظم البصير عدة قصائد اتسمت بطابع القوة والبأس منها قصيدته المشهورة (وأبيك ان الحق غالب) التي انشدها في حفلة ثورية كبرى اقيمت بجامع الحيدر خانه بعد ان استولى الثوار على النجف وكربلاء وعلى مدن اخرى في اواسط الفرات وعلى دلتاوة وبعقوبة في ديالى وقد استهلها بقوله :

بين الاسنة والقواضب شرف المبادىء والعواقب

وللبصير شعر كثير اودعه كله في ديوان سماه (البركان) ويعده الدكتور رؤوف الواعظ (شاعر الثورة العراقية) فيقول عنه : وضع في ابياته والفاظه جمرات متقدة ثم نفخ فيها من روحه فكانت نارا ملتهبة تلفح وجوه الانكليز الغادرين .

واستمر البصير في كفاحه الشعري مشاركا في الحفلات والمهرجانات يثير هم الثوار وينال من المحتلين وكاشفا الاعيبهم ومعيبا على المتخاذلين الذين لم ينالوا شرف المساهمة في هذه الثورة وراحوا يغازلون الانكليز وتعدى ذلك الى ان يقترح الاراء التي بالامكان التوصل الى حلول تخدم البلاد والعباد . وتحرير الشعب من التبعية فقد « كانت الحرية حبيبة الى قلوب الشعراء العراقيين فانهم بطبيعة الحال مقتوا الحكومات التي قيدت الحريات وتحرقوا شوقا الى حيث ابناء شعبهم على التخلص من حكم الظلم والاستبداد »[١٠] . ومن هؤلاء الشعراء الذين كانت لهم مساهمات في الثورة[١١] :

الشاعر كاظم السوداني فيقول في قصيدة منها :

بني العرب خلوا السلم قد حانت الحرب وانتم بها اولى واجدر يا عرب
دعوا الضيم عنكم واطلبوا بحقوقكم فقد غصبت قسرا وضيعها الغصب
الى الان جيش الظلم وسط بلادكم وما انتاش في اثقاله النهب والسلب

والشاعر محمد حبيب العبيدي الموصلي نظم قصيدة في بداية الثورة في تموز ١٩٢٠ ومما قاله يخاطب الرسول الاعظم :

سيد الرسل ومن بعثته كست الكون بهاء ونضارا
قم الى النورالذي جئت به افترضى ان يعود النور نارا
يقتل الباطل عمدا حقنا رمى الباطل لا نطلب ثارا
نحن احرار لدى فعل الخنا ولدى حرية الفكر اسارى

وللشاعر عطا الخطيب قصائد ادخلته السجن ونفي بسببها ومن ضمن مجموعة خطية كانت عند الاستاذ ابراهيم الوائلي في قصيدة يقول :

الا انهض وقز فيما تحاول يا شعب فما انت من يثنيه سهل ولا صعب
الام الام الحلم والشرق كلما اراد امتطاء المجد عارضه الغرب ؟
لعمرك ان الحلم يا شعب بعد ذا لذنب عظيم لا يماثله ذنب
تنشط وثب وازحف وجاهد ولا تدع مجالا بان يرعى شويهاتك الذئب

وللشاعر الشيخ عبد الحسين الحويزي (ت :١٩٥٧) بعض القصائد في الثورة

ايطلق شعبنا للزحف ساقا وكم خطب له الحدثان ساقا
لقد عقد الضغائن فيه خصم بخدعته يحتل العراقا

والشاعر محمد علي اليعقوبي (ت :١٩٦٥) شعر اوحته اليه حوادث الثورة ومن قصيدته (تحية الثوار) وكان قد ارسلها الى جماعة من المرابطين في جبهة السماوة والرميثة حيث يشتبك الثائرون مع جيش الاحتلال ومنها قوله :

www.attaweel.com

احبتنا بساحات الكفاح ثقوا بالنصر فيها والنجاح
نذرتم للوغى لما دعاكم لها الداعي بشوق وارتياح
فزتم بالفخار بها وابت اعاديكم بخزي وافتضاح

والشاعر خليل عزمي له صوت بارز فعندما اجتمع المجلس الحربي في كربلاء وقرر تعيين المتصرف في المدينة استبشر السكان ورفعوا العلم العربي بالوانه الاربعة وقال قصيدة في هذه المناسبة منها :

بشراك يا كربلا قومي انظري العلما على ربوعك خفاقا ومبتسما
وكفكفي دمعك الهطال وابتهجي فان بند بني قحطان قد حكما
هذا هو العلم المحبوب فاحتفلي عليه يا كربلا واستنهضي الهمما

وللشاعر عباس الخليلي قصيدة في الثورة من جملة قصائده التي ساهم فيها ومطلعها :

اما وغمام يشبه الظلم اسودا ورعد حتى قصف المدافع بالصدى

ومن الشعراء الحاج عبد الحسين الازري (ت :١٩٥٤) فقد القى قصيدة في حفلة التابين التي اقيمت في رثاء الشيخ الشيرازي الذي توفي والثورة ما زالت ناشبة فكان لوفاته اثر كبير في نفوس الثائرين منها :

منعاك عز على العراق الدامي وامضه يا خاتم الاسلام
صدع القلوب حديث نعيك فدخلت دار حميت ذمارها من حسام
كانت تفنده المسامع خشية من عبئه بفوادح الالام

وللشاعر خيري الهنداوي (ت :١٩٥٧) قصيدة على نفس الوزن في المناسبة وكان منفيا في جزيرة هنجام ضمن مجموعات كبيرة من الثوار ومنهم الشعراء توزعوا بين سجن ونفي وبقيت اصواتهم امثال الشاعر الشيخ محمد جواد الجزائري والشاعر محمد حسن ابو المحاسن والشاعر السيد هبة الدين الشهرستاني وغيرهم .

واذا اردنا ان ننصف القول ونوفي الحق فاننا نستطيع ان نذكر بان الشعر العراقي الوطني كان تاريخا للاحداث السياسية وكثيرا ما يقف الشاعر موقف المعارضة والهجوم من السلطة ويشير الى مساوىء الانظمة الحاكمة وكان من الشعراء الكبار الذين تميزوا في الشعر السياسي في العراق امثال الرصافي والشبيبي والزهاوي والكاظمي وعلي الشرقي لذلك ياتي التساؤل اين هؤلاء الشعراء الكبار من ثورة العشرين ؟

ربما لا تتفق الثورة مع منظورهم السياسي او لسفرهم خارج القطر او لمصلحة شخصية [١٢] وتعلق البعض للانكليز « شانهم في ذلك شان الملوك والامراء مع شعراء المدح والتكسب وفريق اخر لم يتاجر بالنظم ولم يكتسب بالشعر وانما خدعته الوعود ... ومن امن بالثورة وعمل في سبيلها ولكن جانبها السياسي شغله عن التخيل والتعبير في صورة من صور الشعر »[١٣] ولا نريد هنا ان نضع كل شاعر في دائرة تقصير معينة فاذا كنا لا نجد لهم شعرا في هذه المناسبة فليس من اليسير ان نحكم على وطنيتهم من خلال هذا الموقف فقط فان لهم مساهمات اخرى في مواقف لمناسبات وطنية ساهموا بها .[١٤]

وانتهت ثورة العشرين من المواجهات الحربية وتوقف الثوار عن اطلاق النار يوم ٢٠ / ١١ / ١٩٢٠ فيما استمر الشعر في تخليد هذه الذكرى سواء بذكر الخيبة والفشل او رثاء الشهداء او تمجيد البطولات او تذكر الذين سجنوا او نفوا عن الوطن وتعقب الاستاذ ابراهيم الوائلي الشعراء الذين كانت لهم الاستمرارية في ذكر الثورة [١٥] وفي مقدمتهم الشاعر المناضل محمد مهدي البصير وقد نظم شعرا استوحاه من نهاية الثورة ومنه قوله :

كافحت اعدائي ولست بواثق ان النجاح مقدر لكفاحي
لكنما وطني دعا فاجبته وابيت للباغين خفض جناحي
ولئن رجعت بغير ما املته ونزعت من يد قاهري سلاحي
فلقد افدت من المصائب خبرة ستكون عند العود سر نجاحي

ويعبر الشاعر سعد صالح عن الخراب الذي اصاب القرى وقد انتهت الثورة وترك البلاد فارا فيقول :

سئمت العيش في وطن يضام بذل ويضطهد
محته يد الفضاء فرا ح لا روح ولا جسد

وغيرهم من الشعراء الذين ذكروا الثورة وتاملوا وتالموا من النهاية او وصفهم للمعارك او المطالبة ببعض الحقوق والتعريض بالانكليز وسياستهم والاخذ بالثار والحث على مواصلة الكفاح ومن هؤلاء الشعراء محمد الباقر ومحمد مهدي الجواهري وكان شابا والشاعر عبد الرحمن البناء والشاعر حسن الحاج علي وغيرهم .

واذا تاملنا هذا الشعر الذي قيل في ثورة العشرين نلمس بصدق الشعور الديني والعواطف الجياشة والاحساس الوطني ونعده شاهد حق ودليل صدق على مساهمتهم ووقفتهم البطولية الرائعة وتعاطفهم مع الشعب وقادة الثورة واذا كنا نلمس التكلف احيانا وتضمنه النصائح المجردة واقتفاء الشعر التقليدي في احيان اخرى وضعف في

www.attaweel.com

الصياغة فانه ليس من المستساغ في هذه العاجلة ان نضعهم في دائرة النقد الادبي ونقيس اشعارهم على نحو ما نريده هذه الايام من مصطلحات لم يكونوا معنيين بها في تلك الظروف الحرجة وكانت بشكل مفاجيء وكانت الثورة في فترة زمنية قصيرة وزيادة على ذلك وجد الشعراء انفسهم مع الثورة وجها لوجه لا مجال للغموض او الصور الخيالية لان الواقع غير مالوف لهم امام عدو غاشم وقوي .

ولكن ننظر من زاوية المواقف الوطنية حيث كانوا لا يخشون شيئا في اعلاء كلمة الحق والنضال في سبيل الحرية والكرامة والاستقلال .

انن اليس من حق هؤلاء الشعراء ممن ذكرنا او لم نذكر ان نترحم عليهم ؟ ونقف باحترام نحيّ فيهم صولاتهم وجولاتهم ؟ ونذكر بهم مواقفهم الوطنية ونسجل بالتقدير والاعتزاز تلك القصائد التي نظموها وساهموا في القائها ؟ بلى لعمري انهم يستحقون ذلك ولعل هذه المبادرة في تخصيص عدد خاص عن ثورة العشرين وزاوية ضمن هذا العدد عن الشعر في ثورة العشرين ياتي من مستلزمات الوفاء .

الهوامش :

(١) الفكر السياسي لثورة العشرين نديم عيسى وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٩٢ ص :٦ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث ـ الدكتور رؤوف الواعظ / وزارة الاعلام العراق / دار الحرية ١٩٧٤ ص :٢٨٥ .

(٣) النظام السياسي في العراق / د . محمد عزيز / بغداد / ١٩٥٤ :٦٥ .

(٤) معروف الرصافي ـ حياته وادبه السياسي ـ الدكتور رؤوف الواعظ دار الكتاب العربي :٥ .

(٥) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ الدكتور عبد الله الفياض مطبعة دار السلام بغداد : ١٠٧ .

(٦) العراق ـ شهادة سياسية ١٩٠٨ ـ ١٩٣٠ حسين جميل دار اللام لندن :٥٣ .

(٧) الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية حـ ١ /السيد عبد الرزاق الحسني ـ وزارة الثقافة والاعلام دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٠ :١٩ .

(٨) تناول هذا الموضوع تفصيلا الاستاذ ابراهيم الوائلي في كتابه الشامل بعنوان ثورة العشرين في الشعر العراقي مطبعة الايمان بغداد ١٩٦٨ الصفحات :٦٥ وما بعدها .

(٩) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث :٩٤ .

(١٠) النقد الاجتماعي الساخر في الشعر العراقي الحديث رسالة دكتوراه الدكتورة ابتسام عبد القادر :٢٢٩ .

(١١) ثورة العشرين في الشعر العراقي :٧٥ ـ ١٢٠ .

(١٢) تطور الشعر العربي الحديث في العراق الدكتور علي عباس علوان ـ دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والاعلام العراق بغداد ١٢٣ ـ ١٢٩ .

(١٣) ثورة العشرين في الشعر العراقي :٢٣ .

(١٤) معروف الرصافي حياته وادبه السياسي :٥٠ .

(١٥) ثورة العشرين في الشعر العراقي :١٢١ ـ ١٤٩ .

★★★

www.attaweel.com